اسامة بن منقذ

- ٢ -

« أسامة في وادي موسى »

لقي أسامة ضيقاً شديداً في وقعة كانت بينه وبين الفرنج قتل فيها ابنه حسام الملك وأسر ابنه ناصر الدين واخوه نجم الدولة ابو عبد الله محمد واخذت خزائنه وحرمه وقتل الفرنج كل من ظفروا به ، وهو بمن معه تحصن في الجبال .

يقول أسامة : فسرنا في اشد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولا علف للخيل الى ان وصلنا جبال بني فهيد لعنهم الله في وادي موسى وطلعنا في طرقات ضيقة وعرة الى ارض فسيحة وهناك رجال وشياطين رجيمة من ظفروا به منا منفرداً قتلوه وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الامراء الطائيين فسألت من هاهنا من امراء بني ربيعة قالوا منصور بن عذقل وهو صديقي ودفعت لواحد دينارين وقلت له امض الى منصور قل له صديقك بن منقذ يسلم عليك و يقول لك صل اليه بكرة ، ثم جاء منصور بن عذقل فصاح بالاعراب وسبهم فتفرقوا وقال اركب فركبنا وجمعت للامير الف دينار مصرية ودفعتها له وعاد وسرنا حتى وصلنا دمشق بمن سلم من الافرنج وبني فهيد يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة نفسها .

« اول وقائعه »

سيره ولده الى أفاميا سنة ٥١٣ لقتال الفرنج المخيمين بها وكان الانتصار حليفه يقول أسامة في وصف هذه الحملة فرجعت على فارس في اولهم قد القى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين ايدينا فطعنته في صدره فطار عن سرجه ميتاً ، ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وانا غير ما حضرت قتالاً قبل هذا اليوم وتحتي فرس مثل الطير ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ، ثم أجتنّ عنهم وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولامة الحرب ، انا خائف منه لا يكون جاذباً لي ليعود عليّ حتى رأيته ضرب حصانه بمهازه فلوّح بذنبه فعلمت انه قد أعيا فحملت عليه وطعنته فنفذ الرمح من قدامه فخوّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من ذراع وخرجت من السرج لخفة جسمي وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحي وانا أظن اني قتلته ، فجمعت اصحابي وهم سالمون وكان معي مملوك صغير بحرّ فرساً لي دهماء مجنوبة وتحته بغلة مليحة سروجية فنزل عن البغلة وبيتها وركب الحجرة فطارت به الى شيزر ، فلما عدت الى اصحابي وقد أمسكوا البغلة سألت عن الغلام فقالوا راح فعلمت انه يصل الى شيزر و يشغل قلب الوالد ، فدعوت رجلاً من الجند وقلت أسرع الى شيزر وعرف والدي بما جرى ، فذهب فوجد الغلام يقصّ على والده الحالة ، ولما عاد أسامة قصّ عليه القصة .

« اقامته على عسقلان في قتال الفرنج »

أرسل الملك العادل أسامة للسير الى الملك العادل نور الدين الشهيد وقال له خذ معك المال المطلوب وامض اليه لينازل طبرية و يشغل الفرنج عنا لنخرج من هاهنا نخرب غزة ، وكان الفرنج قد شرعوا في عمارة غزة ليحاصروا عسقلان . فقال له أسامة : فان اعتذر او كان له من الأشغال مايعوقه فأي شيء تأمرني به . فقال : ان نزل على طبرية فأعطه المال الذي معك وان كان له مانع فدوّن ما قدرت عليه من الجند واطلع الى عسقلان أقم بها في قتال الفرنج واكتب اليّ بوصولك لآمرك بما تعمل ودفع اليه ستة آلاف دينار مصرية وحمل جمل دبيقياً ورتب معه قوماً من العرب ادلاء .

« في طريقه الى عسقلان »

يقول أسامة فلما دنونا من الجفر قال لي الأدلاء هذا مكان لا يكاد يخلو من الفرنج فأمرت اثنين من الادلاء ركبا مهر بين وسارا قدامنا الى الجفر فوقفت وجمعت الجمال التي عليها ثقلي ورددتها الى العرب وندبت ستة فوارس من مماليكي وقلت تقدمونا وانا في أثركم فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم فعاد اليّ واحد منهم وقال ما على الجفر احد ولعلهم أبصروا عرباً وتنازع هو والأدلاء فنفذت من رد الجمال وسرت فلما وصلت الجفر وفيه مياه وعشب وشجر ، قام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذنا ، وتفرق أصحابي فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبيين فجاءت امرأة منهن أمسكت ثوبي وقالت ياشيخ انا في حسبك ، قلت انت آمنة مالك ؟ قالت قداخذ اصحابك لي ثوباً وناهقاً ونابجاً وخرزة فقلت لغلماني من كان اخذ شيئاً فليرده فردت هذه الاشياء اليهم ، جمع هؤلاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أسامة حين رأى بهم من الضر ما رأى وقد يبست جلودهم على عظامهم ، وسألهم من اين انتم ؟ فقالوا نحن من بني أبي وبنو أبي فرقة من العرب من طيء لا يأكلون الا الميتة ويقولون نحن خير من العرب ، ما فينا مجزوم ولا أبرص ولا أعمى ، واذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم ، ثم سألهم كم لكم هنا فقالوا من عيد رمضان ما رأينا الزاد باعيننا ، قلت : فمن اين تعيشون ؟ قالوا : من الرمة (يعنون العظام البالية) الملقاة ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف (شجر بتلك الارض) ونقتات به ، قال : فكلابكم قالوا : الكلاب نطعمها من عيشنا والحمر تأكل الحشيش ، فقال : فلماذا لاتدخلون الى دمشق ؟ قالوا: خفنا الوباء (ولا وباء أعظم مما كانوا فيه) وكان ذلك بعد عيد الاضحى فوقف حتى جاءت الجمال وأعطى هؤلاء الاعراب من الزاد الذي كان معه ، ثم قطع فوطة كانت على رأسه وأعطاها للمرأتين فكادت عقولهم تزول من فرحهم بالزاد ، ثم أسدى اليهم النصح راغبا عدم اقامتهم في هذا المكان خوفاً عليهم من ان يسبيهم الافرنج .

« وقوعه في التيه »

وقع اسامة في تيه اثناء مجيئه الى نور الدين الشهيد في بصرى ولولا لطف الله لهلك في هذا التيه وقد وصف تيهه وصفاً يطول شرحه هرب منهم البغل في اثناء رحلته هذه وعليه اربعة آلاف دينار فلحقه بفرسه فأعيا عن اللحاق به وقد كان لحقه الغلام ايضاً فعاد بالخرج دون البغل قائلاً يامولاي وجدت الخرج ولم اجد البغل فقال للخرج كنت اطلب والبغل اهون مفقود .

« صيده وقنصه »

كان أسامة ولوعاً بالصيد والقنص كما ولع به ابوه من قبله فقد كان والده ليس له شغل سوى الحرب وجهاد الافرنج الصليبيين يركب الى الصيد يوماً و يستريح يوماً ، نسخ عند فراغه ستاً واربعين مصحفاً بخطه منها ختمتان بالذهب جميع القرآن وكان صواماً قواماً .

كان لأسامة في شيزر متصيدان متصيد للحجل والارانب في الجبل قبلي البلد ، ومتصيد لطير الماء والدراج والارانب والغزلان على النهر في الازوار من غربي البلد ، وكان يتكلف في تسيير قوم من اصحابه الى البلاد لشراء البزاة فأنفذ الى القسطنطينية من احضر منها بزاة وقد حمل الغلمان معهم من الحمام ما ظنوا انه يكفي البزاة التي معهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتغير عليهم البحر وتعرقوا ولم يبق من لحوم الطير فاضطروا ان يطعموا البزاة من لحم السمك فاثر ذلك في أجنحتها وصار ريشها ينكسر و ينقصف فلما وصلوا بها الى شيزر كان فيها بزاة نادرة وكان لدى والده خادم (بازيار) عارف في اصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم فوصل اجنحتها واصطاد بها وقرنص بعضها عنده وكان اكثر ما يستدعي البزاة و يشتريها من وادي الاحمر ، وحسبنا ان نلم الى صيده وقنصه الماعاً ضاربين صفحاً عن كل ما وقع له في صيده وتربيته البزاة .

« صيده مع الملوك والامراء »

حضر الصيد مع والده مرشد بشيزر في صدر العمر ومع ابناء عمه بها ومع ملك الامراء اتابك زنكي بن آق سنقر .

ومع الملك العادل نور الدين ابي المظفر محمود بن اتابك زنكي رحمه الله ، وبديار بكر مع الامير فخر الدين قرا ارسلان بن داود بن ارتق .

« ادب أسامة وشعره »

أسامة اديب كما اسلفنا تلمس من شعره الجزالة والسهولة لم يستعمل عويص الالفاظ ولا وحشي الكلام مدح في شعره وعتب وبكى وتغزل وحرض وفخر وحن الى الاوطان حنين الابل الى الاعطان حتى انه ضرب في كل فن وتناول طرفاً من كل علم ، وله ديوان شعر في مجلدين لم اعثر عليهما بالرغم عن كثرة بحثي وتطلعي ولكني لم اعدم الحصول على شيء كثير منه في اثناء مطالعتي الكتب وتصفحي اياها ومن جملة ما عثرت عليه كتاب العصا وهو في نحو مائة وخمسين صفحة نسخته على نسخة طبعت في باريز كنت أوصيت عليها صديقي الحميم ورفيق الدراسة المرحوم الدكتور صالح قنباز وانا اليوم آخذ بتصحيحها وضبطها وشرحها وزيادة ماعثرت عليه في العصا حتى يجيء الكتاب جامعاً وافياً بالمرام .

« نتف من شعره »

وقعت نفرة بينه وبين ابن عمه صاحب شيزر لمقالة بلغته فكان ينظم في العتاب ماهو مستطاب . ومما كتبه لابيه يدل على كرم محتده وسامي أخلاقه وعظيم خلاله قوله :

وما أشكو تلون اهل ودي ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم فما أرجوهم فيمن رجوت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا أدمت قوارصهم فؤادي صبرت على أذاهم وانطويت
وجئت اليهم طلق المحيا كأني ما سمعت ولا رأيت
تجنّوا لي ذنوباً ما جنتها يداي ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت غدراً كما قد أضمروه ولا نويت
و يوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيت

وله ايضاً يشكو من الهجران :

لا تسعر جلداً على هجرانهم فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بانك ان رجعت اليهم طوعاً والا عدت عودة راغم

وله قصيدة سير بها الى ابن عمه صاحب شيزر يعتذر له عن قول بلغه عنه جاءت على قافية الفاء تبلغ خمسين بيتاً مطلعها :

أطاع ما قاله الواشي وما هرفا فراح ينكر منا كل ما عرفا

ومما أحفظه له يتشوق الى اهله وصحبه و يحن فيه الى وطنه وهو من الشعر المنسجم الذي يدخل الأذان بغير استئذان :

ما يريد الشوق من قلب معنّى ذكر الآلاف والوصل فخنّا
حسبه من شوقه ما عنده وكفاه من هواه ما اجنّا
كلما شاهد شملاً جامعاً طار وجداً وهفا شوقاً وانا
فرثى من رحمة عاذله ورأى الحاسد فيه ماتمنى
ويحه من حرق تعتاده وهموم جمة تطرق وهنا
يا زمان الوصل سقيا لك من زمن لو كان قرب الدار عنا
قل لأحباب نأت دارهمُ وعلى قربهم أقرع سنا
ساء ظني باصطباري بعدكم ولقد كنت بكم أحسن ظنا

« وصف الزلزلة الكبرى في شيزر وحماة »

في سنة ٥٥٢ كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة اخربت البلاد واهلكت العباد وكان اشدها بمدينة حماة وحصن شيزر كما قال ابن الاثير فانها خربا بالمرة وخرب ما جاورهما كحصن بارين والمعرة وغيرهما من البلاد وهلك تحت الردم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الخلق مالا يحصيه الا الله ولولا ان يمن الله تعالى على المسلمين بنور الدين فيصلح ماتهدم و يحفظ البلاد لهلكت البقية الباقية منهم واصبحت لقمة سائغة في افواه الفرنجة . ومن غريب ما يروى ان بعض المعلمين بحماة ذكر انه فارق المكتب لهم فجاءت الزلزلة فاخربت الدار وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت احد يسأل عن صبي كان له في المكتب مما يدل على ان الزلزلة اخذت اولياءهم ايضاً .

في هـذا الزلزال سقطت قلعة شيزر على آل منقذ ولم تبق على احد منهم اللهم الا امرأة اخرجت من الردم ، ومما يروى انه بينما كان احد ابناء آل منقذ فاراً من الزلزال حتى اذا وافى باب القلعة رمحه الحصـان فمات لوقته و بهذا لم ينج احد من آل منقذ الذين هم داخل القلعة ، اما المرأة التي اخرجت من الردم فهي زوجة ابي الفضـل اسماعيل بن ابي العساكر بن علي بن مقلد تدعى الخاتون اخت شمس الملوك بنت بوري بن طغتكين ولما جاء نور الدين الشهيد الى استلام شيزر طلب من هذه المرأة ان تعلمه عن المال وهددها فذكرت ان الردم سقط عليها وعليهم ونبشت هي دونهم ولا تعلم بشيء واذا كان لهم شيء فهو تحت الردم وكان شرف الدولة غائباً فحضر بعد الزلزلة وعاين ما فعلت بشيزر واخيه وشاهد امرأة اخيه بعد العز في ذلك الذل فعمل :

ليس الصـباح من المساء بامثل فأقول لليل الطو بل الا انجـلي
شلت يد الايام ان قسيها ما ارسلت سهما فاخطا مقتلي
لي كل يوم كربة من نكبة يهمي لهـا جفني وقلبي يصطلي
يا تاج دولة هاشم بل يا ابا الغـيجان بل يا قصد كل مؤمل
لو عاينت عيناك قلعـة شيزر والستر دون نسائها لم يسبل
لرأيت حصناً هائل المرأى غدا متهيلاً مثل النقـا المتهيل
لا يهتدي فيه السعاة لمسلك فكأنمـا يسري بقـاع مهول

ومما قاله فيها يذكر امرأة اخيه المذكورة .

نزلت على رغم الزمان ولو حوت يمناك قائم سيفها لم تنزل
فتبدلت عن كبرها بتواضع وتعوضت عن عزها بتذلل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« أسامة يرثي اهله »

أسامة رثى اهله الذين هلكوا في هذا الزلزال رثاءً مستفيضاً وبكاهم كثيراً في شعره اكتفي بذكر شيء من قصيدته النونية لان له مراثي كثيرة بكى فيها ذلك العز الشامخ بعيون هتانة هطالة وهي :

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ... ولا تخرّمهم مثنى ووحدانا
فكنت اصبر عنهم صبر محتسب ... واحمد الخطب فيهم عز أو هانا
واقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا ... أخاً وكم فارقوا اهلاً وجيرانا
لكن سقيت المنايا وسط جمعهم ... رغماً نخروا على الاذقان اذعانا
وفاجأتهم من الايام قارعة ... سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا
ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا ... هل ما ترى تارك للحين انساناً
اعزز علي بهم من معشر صبروا ... على الحفيظة ان ذو لوثة لانا
لم يترك الدهر لي من بعد فقدهم ... قلباً اجشمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات اسعدنا ... وعاش للهم والاحزان اشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرني ... عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا
بادوا جميعاً وما شادوا فواعجباً ... للخطب أهلك عُمّاراً وعمرانا
هذي قصورهم أمست قبورهم ... كذاك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل افنت معشري فاذا ... ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا
لا التقى الدهر من بعد الزلازل ما ... حييت الا كسير القلب حيرانا
اخنت على معشري الادنين فاصطلمت ... منهم كهولاً وشباناً وولدانا
لم يحمهم حصنهم منها ولا رهبت ... بأساً تبادره الاقران ازمانا
ان أقفرت شيزر منهم فهم جعلوا ... منيع أسوارها بيضاً وخرصانا
هم حموها فلو شاهدتهم وهم ... بها لشاهدت آساداً وخفّانا
تراهم في الوغى أسداً ويوم ندي ... غيثاً مغيثاً وفي الظلماء رهبانا
بنوا ابي وبنوا عمي دمي دمهم ... وان أروني مناواة وشنآنا
يطيّب النفس عنهم انهم رحلوا ... وخلفوني على الآثار عجلانا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« مراسلاته مع ابن رزيك »

وكانت بينه وبين الصالح بن رزيك مراسلات شعرية ومطارحات أدبية أفردت لها رسالة خاصة ، وقد أرسل الى أسامة يعزيه بقومه الذين هلكوا بالزلزال في قصيدة مطلعها :

بابي شخصك الذي لا يغيب عن عياني فهو البعيد القريب

ومنها : كره الشام اهله فهو محقو ق بان لا يقيم فيه لبيب
ان تجلت عنه الحروب قليلاً خلفتها زلازل وخطوب
رقصت ارضه عشية غنى الرعد في الجو والكريم طروب
ونثنت حيطانه اذ أمالتها شمال يزمرها وجنوب
لا هبوب لنائم من أمانيـ ـه وللعاصفات فيها هبوب

ومنها : لهف نفسي على ديار من السكان اقوت فليس فيها مجيب
فاحتسب ما اصاب قومك مجد الدين واصبر فالحادثات ضروب

وكتب أسامة الى الصالح طلائع ابن رزيك هذا يسأله تسيير اهله الى الشام وكان الصالح بن رزيك يتوقع رجوعه الى مصر من حين لآخر و يسير له الرسائل طالباً عودته الى مصر ، وأسامة لا يرغب بالعودة بعد حوادث ابن السلار والظافر العبيدي .

اذكرهم الود ان صدوا وان صدفوا ان الكرام اذا استعطفتهم عطفوا
ولا ترد شافعاً الا هواك لهم كفاك مااختبروا منه وما كشفوا
يا جيرة القلب والفسطاط دارهم لم تصقب الدار لكن أصقب الكاف
فارقتكم مكرهاً والقلب يخبرني ان ليس لي عوض منكم ولا خلف
ولو تعوضت بالدنيا غبنت وهل يعوضني عن نفيس الجوهر الصدف
ولست انكر ما يأتي الزمان به كل الورى لرزايا دهرهم هدف
ولا أسفت لأمر فات مطلبه لكن لفرقة من فارقته الاسف
المالك الصالح الهادي الذي شهدت بفضل ايامه الأنباء والصحف
ملك أقل عطاياه الغنى فاذا أدناك منه فأدنى حظك الشرف
سعت الى زهده الدنيا بزخرفها طوعاً وفيها على خطابها صلف
مسهد وعيون الناس هاجعة على التهجد والقرآن معتكف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتشرق الشمس من لألاء غرته في دسته فتكاد الشمس تنكسف

فأجابه الصالح وكان يجيد النظم رحمه الله :

آدابك الغر بحر ما له طرف في كل جنس بدا من حسنه طرف
تقول لما اتانا ما بعثت به هذا كتاب اتى ام روضة أنف
اذا ذكرناك مجد الدين عاودنا شوق تجدد منه الوجد والاسف
يا من جفانا ولو قد شاء كان الى جنابنا دون اهل الارض ينعطف

« كتبه وتآليف »

لأسامة كتاب الاعتبار ترجم الى اللغة الافرنسية وترجم اخيراً الى اللغة الانكليزية وعنونه المترجم بقوله « الرجل الكامل » وهو يشتمل على ترجمة نفسه ، وله كتاب العصا وازهار الأنهار وكتاب البديع [1] واختصر سيرة عمر بن الخطاب تأليف ابن الجوزي البغدادي وقد عثرت على هذا الكتاب ونسخته وبعثت بالاصل مع مختصر الموافقة بين آل البيت والصحابة للزمخشري الى العلامة المرحوم احمد تيمور ، وله التاريخ البدري واخبار البلدان وذيل على خريدة القصر للباخرزي ، وكانت لديه مكتبة عامرة تشتمل على غرر المخطوطات ونفائسها تبلغ اربعة آلاف مجلد .

« أخذه الامان لاهله من الفرنج في جلبهم من مصر »

استقدم عائلته واولاده من مصر في مركب بعد ان اخذ لهم الامان من الفرنج فما كان منهم الا ان أخذوا من النساء مامعهم من الحلي والجواهر والذهب والفضة بما يقدر بثلاثين الف دينار ، يقول أسامة فهون عليّ سلامة اولادي واولاد أخي وحرمنا ذهاب ماذهب من المال الا ماذهب لي من الكتب فانها كانت اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت فهذه نكبات تزعزع الجبال . ولاريب هذه الكتب التي فقدها هي غير الكتب التي كانت لديه في شيزر ولدى والده .

---

(١) قال في كشف الظنون كتاب البديع في علوم الشعر لأسامة بن منقذ اوله : « الحمد لله الحي القيوم » الخ ذكر فيه انه جمع ما تفرق في كتب العلماء من نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه وانه وقف عليه اه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« نموذج من كتاب العصا »

اخترته لما له من العلاقة بدمشق

يقول أسامة رحمه الله حضرت بدمشق وقد وقع بين العميان وبين رجل كان يتولى وقفهم يعرف بابن البعلبكي خلف فلقوا فيه صاحب دمشق شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري رحمه الله عدة مرار فقال للامير مجاهد الدين تالله خلصني منهم واجمعهم واحضر نائبهم في الوقف وافصل حالهم فقال السمع والطاعة وقال لي مجاهد الدين تفضل واحضر معنا فاجتمعنا في ايوان كبير في دار وحضر النائب ابن البعلبكي ونائب كان قبله يقال له ابن الفرّاش وحضر العميان في نحو من ثلاثمائة رجل فحملوا قدامهم ودخلوا الايوان كل واحد وعصاه معه في يده وضعها الى جنبه ، ثم تجاروا الحديث فكان بعضهم هواه مع النائب الاول ابن الفرّاش وبعضهم هواه مع ابن البعلبكي فتنازعوا وتخاصموا ساعة ولا يتدخل بينهم لعلو أصواتهم وكثرتهم ثم تواثبوا فارتفع في الايوان نحو من ثلاثمائة عصا في ايدي العميان لا يدرون من يضربون وعلا الضجيج والصياح حتى ندمت على حضوري فتلطفنا في الامر حتى سكنت الفتنة بينهم ومشيا امرهم على ما أرادوا وما صدقنا انهم ينصرفون .

« نموذج من شعره في العصا »

كتب في كتاب الى ولده الامير عضد الدين ابي الفوارس مرهف الى مصر يطلب منه عصا من آبنوس وكان مرهف مؤسراً في مصر من قبل صلاح الدين رحمه الله :

أريد عصا من آبنوس تقلني فان الثمانين استعادت قوى رجلي
ولو بعصا موسى التقيت لآدها على ما بها من قوة حملها ثقلي
ولكن تمنينا الرجاء بباطل وكم قدر ما نرجي المنايا وكم تملي
اذا بلغ المرء الثمانين فالرد يناجيه بالترحال من جانب الرحل

« وله في شيخوخته »

يشكو ضعف جسمه و يأسف على شبابه ويذكر من طول العمر والمدد :

مع الثمانين عاث الضعف في جلدي وساء في ضعف رجلي واضطراب يدي
اذا كتبت فخطي جدّ مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وانـ مشيت وفي كفي العصا ثقلت رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً من بعد حطم القنا في لبة الأسد
فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والمدد

« هو والاسد »

حقاً ان أسامة لقد حطم القنا في لبة الاسد : بلغه ان هناك اسداً على شاطيء الفرات يمنع الناس من المرور ولم يستطع احد ان يتعرض لقتله وانقاذ الناس من شره فما كان منه الا ان هب ذات يوم متقلداً سيفه ورمحه دون ان يعلم اهله وذوي رحمه ومضى الى الفرات حيث مقر الاسد وما هي الا بضع دقائق على منازلته اياه حتى حطم القنا في لبته فخر صريعاً لليدين وللفم ثم جاء بآثاره الى شيزر فأكبر أهله عمله وكان يوماً مشهوداً .

« ضرائح العظماء تهان »

هؤلاء آل منقذ بإسادة وذاك طرف من أخبارهم وهذا أسامة بن منقذ الفائد العظيم والبطل المغوار الذي كان يد نورالدين العاملة في صد اغارات الفرنج وفي الفتوح والذي كان يخطب ودّ الامراء والملوك قد المت بشيء من ترجمته وأتيت على نتف من شعره وذكرت انه بعد البحث والتنقيب في بطون التاريخ تحقق لديّ انه دفن في سفح قاسيون — من ترى وقف على ضريحه وعرف مقره ، لقد ذهبت غير مرة الى ذلك السفح الذي ضم أعاظم الرجال ، و بحثت بين الضرائح فلم أقف له على أثر ولعلي جهلت مقره فلم اهتد اليه ، ولكني شاهدت أصحاب البنيان قد امتدوا الى الضرائح فتناولوها وقوضوا دعائمها وبعثروا رفاتها وطمسوا اعلامها وشوهوا محاسنها وداسوا حرمتها ولا من ينهى أصحاب هذا البنيان عن عملهم او يفكر في نقل رفات العظماء الذين يجب ان تبقى ضرائحهم ماثلة لبراها ابناؤنا واحفادنا واحفاد احفادنا فيتخذوها قدوة صالحة لهم تبعث من الهمم وتحض على العمل ، ولسان حالها ينطق انهجوا مناهجنا واسلكوا سبيلنا واقتفوا آثارنا فلا حياة لكم ولا صلاح الا بما صلح به اولكم ، أليس من العار ان نهين عظماءنا ولا نفكر في حفظ ضرائحهم وصونها من إغارة المغيرين الجشعين النهمين الذين لا تأخذهم رأفة على الأمة في محو آثارها ومزاحمة ضرائح أعلامها ؟

أتضيع دمشق ضريح ابن منقذ مع الضرائح الضائعة من ضرائح العظماء والعلماء وهي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مهد العروبة وعنها يؤخذ الشيم واليها ينتمي الاباء ؟

فالى تجديد ضرائح العظماء أيها السادة الى الاحتفاظ بها فهي الواعظ الأقوى للابناء والمرشد الأمين للأحفاد يدفع بهم الى الامام ، وكأني بابي العلاء فيلسوف العرب قد أدرك منذ ذلك الحين ان الناس يهينون العظماء ولا يعنون بضرائحهم فأهابت به نفسه للذود عنها والدعوة الى احترامها والنصح في الابقاء عليها وعدم الإجهاز على اصحابها فطفق ينشد وما أجمل هذا الانشاد :

صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ ـبَ فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض الا من هـذه الاجساد
سر ان استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد
فقبيح بنـا وان قدم العهـ ـدُ هو ان الآباء والأجداد

« عودة للبحث عن ضريح ابن منقذ »

أليس من العار ان لا نعرف مقر ابن منقذ وهو هو الذي ذكرت من وقائعه وعلمه ونبله ؟

هذا نابليون رجل فرنسا وعبقريها الفذ بعد وفاته في جزيرة القديسة هيلانة واستحالته الى رفات بالية وعظام نخرة هب الفرنسيون من باريز فاستخرجوه من ضريحه ورجعوا به الى قلب بلادهم يعيدون به ذكر نابليون ويبثون في أمتهم ما كان لهم من العظمة والإباء والمجد والفخار .

الضرائح في الاسلام لها حرمتها ولها مكانتها فكيف بضريح علم من الاعلام وقائد من اكبر القواد كابن منقذ وأضرابه من عظماء الامة وقادة الرأي المفكرين .

هذا واني لأرجو من المجمع العلمي متطفلاً على مائدته ان يؤلف لجنة في البحث عن ضريح ابن منقذ ومن على شاكلته من الأبطال الذين خدموا الامة وزادوا عن حياضها ونفعوا بعلمهم ودرايتهم راجياً ان يحل اقتراحي لديه محل القبول .

طاهر النعساني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net